

## الثقافة الإسلامية

١ - مصادرها

لمناسبة اعتماد معالي وزير المعارف  
بأمر الثقافة الإسلامية ... ..

للاستاذ إبراهيم جمعة

ثقافة العرب الجاهليين - العرب يستقبلون الإسلام أبعد ما يكونون عن علم أو ثقافة - أثر اليهود والنصارى فيهم - أثر النساطرة من أتباع الكنيسة الشرقية - فضل الأسكندرية على الثقافة الإسلامية - مراكز العلم في حران ونصيبين وجنديسابور - مهبة النساطرة والسريان في النقل عن الأسكندرية إلى الشرق الأدنى - إشتمال العرب بالعلم والفلسفة متأثرين بالنساطرة والصابئة في حران - حركة النقل وما نقل العرب عن الأمم الأخرى

الثقافة الإسلامية كما يؤخذ من اسمها وليدة الإسلام ، فالإسلام ، هو العامل الوحيد في نشوئها ، والعرب هم حمة لواء الإسلام فهم إذن الكوامل التي نهضت بهذه الثقافة وأقامت على الزمن بنيانها الكين . ولم يكن العرب ليؤدوا هذه الرسالة الكبيرة وهي رسالة علم جامع شامل ، لو لم يكن في طبيعتهم لذلك استمداد وقبول

والعرب الجاهليون أميون ، أبعدهم تضاعف شبه الجزيرة العربية عن الأمم ذات الحضارة ، وعزلتهم عنها انزالاً لم يخفف من حدته سوى خروج بعض الاعراب وبخاصة من قریش في التجارة إلى الشام ومصر . وقد ذقت أخفاف الإبل على وجه شبه الجزيرة العربية طريقين هامين : الأول طريق حضرموت والبحرين والخليج الفارسي ، والثاني طريق اليمن والعسير ومكة والبطراء ، فإذا ما انتهت المتاجر إلى خليج فارس وتقوم الشام كان اختلاط بين العرب وسكان الحضرة ، وكان تبادل في التجارة ، وكان امتزاج فيه مصلحة مادية ، وفيه تبادل أفكار ، وفيه أخذ وعطاء فكريان إلى جانب الأخذ والعطاء المروفين في التجارة وقد حل عرب الحجاز محل اليمنيين في السيطرة على الحركة التجارية وعلى مسالك التجارة قبل انبثاق فجر الإسلام بقليل ، وكاد

عرب الحيرة بسبب شدة ولائهم لفارس ، ورغبتهم في تنحية ما عداهم من الاعراب عن خدمة الفرس يستأرون بتجارة إيران . وظلت متاجر الهند والحبشة والبقاع المحصنة في جنوب شبه الجزيرة العربية تنقل إلى تلك البلاد حتى جاء الإسلام فشغل العرب بالجهاد في سبيله ، وانصرفوا إلى الفتح ، وما يصحبه من شواغل ، واستوطنوا أرضاً جديدة أو قل استوطن كثير منهم البلاد المفتوحة فوجدوا فيها غناء صرفهم عن الكدح في سبيل - العيش على النحو الذي عرفوه في جاهليتهم ، وكفاهم سواد العراق أول الأمر مشقة السمي المضي وراء الرزق في هجير البادية - ثم استقبلتهم وديان الشام بما خصها الله من خير ، وانفتحت لهم أبواب مصر فأبدلتهم بمتاد الصحراء جنة فيحاء ، فكان استقرارهم وامتزاجهم بالعناصر الأجنبية سبباً في التحضر وترك عيشة البداوة ، والاقتراب الذي زاد على الزمن وانفرجت دائرته ، فأحاطت بالشىء الكثير مما عرفت أم إيران والجزيرة والشام ومصر من مظاهر التمدن . وعلى هذا كان اختلاط العرب بالأمم المجاورة قبل الإسلام - بسبب التجارة وامتزاجها بها بعد الإسلام بسبب الفتوح أول خطوة في سبيل تكون ثقافة جديدة لم يكن يعرفها العالم من قبل

هؤلاء العرب الذين شهدوا الحضرة شهوداً موقوتاً وهم يقومون على أمر قوافل التجارة أو الدين نزولهم واستقر بهم المقام فيه جنوداً أو بطوناً مهاجرة لم يكن لهم عن مظاهر الثقافة إلا ما كان للعرب الجاهليين عامة من لغة وشعر وقصص وأمثال . وينسب إليهم بعض المؤرخين دراية بالطب والتنجم والانساب والأنواء . وليس من المعدل في شىء أن نسب إلى جماعة هبط مستوأم الاجتماعى إلى مثل ما هبط مستوى عرب الجاهلية علماً منظماً . بل إن كل ما عرفه العرب من هذا القبيل معلومات تقوم على الخبرة التقليدية التي كثيراً ما تخفى قليلاً ما تصيب . يقول الأستاذ أحمد أمين في كتابه فجر الإسلام : « ومن الخطأ أن تسمى هذه الأشياء علماً كما يفعل الألويسى وغيره فيقولون - ومن علومهم علم الطب وعلم الأنواء وعلم السماء ، ثم يشيدون بذلك حتى يوهوك أنه كان عندهم علم منظم بأصول وقواعد ، فإن ما كان عندهم من هذا القبيل لا يتعدى معلومات أولية وملاحظات بسيطة لا يصبح أن تسمى علماً ولا شبه علم »

وقد جهل العرب الجاهليون الفلسفة جهلاً تاماً وكل ما عرف عنهم خطرات فلسفية يقول عنها الأستاذ أحمد أمين أيضاً : «... هناك فرق كبير بين مذهب فلسفي وخطرة فلسفية ؛ فالذهب الفلسفي نتيجة البحث المنظم ، وهو يتطلب توضيحاً للرأى ، وبرهنة عليه ، ونقضاً للمخالفين وهكذا ... وهذه منزلة لم يصل إليها العرب في الجاهلية . أما الخطرة الفلسفية فدون ذلك لأنها لا تتطلب إلا الذمات الدهن إلى معنى يتملق بأصول الكون من غير بحث منظم وتدليل وتفنيده ، وهذه الدرجة وصل إليها العرب» إذن استقبال العرب الاسلام وهم خلو من كل علم صحيح أو فلسفة حقة . ويجدر بنا قبل أن نتعرض إلى الموارد التي تطرق إليها العرب ونهلوا منها علماً وفلسفة خارج ديارهم — أن نذكر شيئاً عن أثر الباطنيين اليهودية والنصرانية . أما اليهود فالمعروف أنه كانت لهم جاليات في يثرب وتبءاء وفدك وخيبر ووادي القرى . وللتقافة اليهودية ناحيتان : الأولى مادية ، فقد نشروا بين الأعراب معرفة بضاعة المادان ولا سيما الأسلحة ، كما عرفوا الزراعة . والأخرى معنوية ، فقد بثوا بين الأعراب كثيراً من تعاليم التوراة قبل الاسلام ، فمرف هؤلاء شيئاً عن البعث والحساب والمقاب ، وظل تأثير اليهود باقياً على شكل أساطير وخرافات ، ومن ذلك ما بثه في الاسلام كبار من أسلموا من اليهود مثل كعب الأبحار الذي نقل إلى الاسلام فكرة « تحريم التصوير » وهو في ذلك ناقل عن تعاليم اليهود وتأثر بطبيعة الجنس اليهودي ، تلك الطبيعة التي تكره التصوير لأنها تعجز عنه وتقصر دونه

ومن أهم المصادر الثقافية التي أخذ عنها العرب أيضاً المسيحيون في شبه الجزيرة قساوستهم ودهبانهم ومنهم الشعراء والبلغاء أمثال أمية بن أبي الصلت وقس بن ساعدة

ويهمنا بنوع خاص كمصريين أن نتعرف مقدار ما أفاد العرب من علوم الاسكندرية . والمؤرخون العرب والسوريون يعتبرون الكاتب والمؤرخ « حنا الأجرومي » أصدق ممثل للحركة العلمية الاسكندرية وآخر رجالها ، وإليه وإلى الفيلسوف السفسطاني « اسطفان الاسكندري » وإلى اسطفان الأثيني وهو طبيب مؤلف ومعلق على بعض تصانيف « جالين » الطبيب الاسكندري يرجع الفضل فيما نقل العرب من علوم الاسكندرانيين

وحنين بن إسحق من أكبر الناقلين لعلوم الاسكندرية يذكر لنا نسبة نقله لمفالات جالينوس إلى السريانية والعربية أنه قبل الفتح العربي بقليل تضافرت جهود أطباء الاسكندرية على جمع سبعة من مصنفات جالينوس الطبية ، أصبحت أساساً للدراسات الطبية في وقت كاد لواء العلم فيه يسقط أو قل سقط بالفعل في مدينة الاسكندرية ، اللهم إلا إذا اعتبرنا تلك الاجتماعات التي كانت تمقد ليتذاكر فيها المجتمعون من محبي العلم عامة والطب

وقد جهل العرب الجاهليون الفلسفة جهلاً تاماً وكل ما عرف عنهم خطرات فلسفية يقول عنها الأستاذ أحمد أمين أيضاً : «... هناك فرق كبير بين مذهب فلسفي وخطرة فلسفية ؛ فالذهب الفلسفي نتيجة البحث المنظم ، وهو يتطلب توضيحاً للرأى ، وبرهنة عليه ، ونقضاً للمخالفين وهكذا ... وهذه منزلة لم يصل إليها العرب في الجاهلية . أما الخطرة الفلسفية فدون ذلك لأنها لا تتطلب إلا الذمات الدهن إلى معنى يتملق بأصول الكون من غير بحث منظم وتدليل وتفنيده ، وهذه الدرجة وصل إليها العرب» إذن استقبال العرب الاسلام وهم خلو من كل علم صحيح أو فلسفة حقة . ويجدر بنا قبل أن نتعرض إلى الموارد التي تطرق إليها العرب ونهلوا منها علماً وفلسفة خارج ديارهم — أن نذكر شيئاً عن أثر الباطنيين اليهودية والنصرانية . أما اليهود فالمعروف أنه كانت لهم جاليات في يثرب وتبءاء وفدك وخيبر ووادي القرى . وللتقافة اليهودية ناحيتان : الأولى مادية ، فقد نشروا بين الأعراب معرفة بضاعة المادان ولا سيما الأسلحة ، كما عرفوا الزراعة . والأخرى معنوية ، فقد بثوا بين الأعراب كثيراً من تعاليم التوراة قبل الاسلام ، فمرف هؤلاء شيئاً عن البعث والحساب والمقاب ، وظل تأثير اليهود باقياً على شكل أساطير وخرافات ، ومن ذلك ما بثه في الاسلام كبار من أسلموا من اليهود مثل كعب الأبحار الذي نقل إلى الاسلام فكرة « تحريم التصوير » وهو في ذلك ناقل عن تعاليم اليهود وتأثر بطبيعة الجنس اليهودي ، تلك الطبيعة التي تكره التصوير لأنها تعجز عنه وتقصر دونه

ومن أهم المصادر الثقافية التي أخذ عنها العرب أيضاً المسيحيون في شبه الجزيرة قساوستهم ودهبانهم ومنهم الشعراء والبلغاء أمثال أمية بن أبي الصلت وقس بن ساعدة

ويهمنا بنوع خاص كمصريين أن نتعرف مقدار ما أفاد العرب من علوم الاسكندرية . والمؤرخون العرب والسوريون يعتبرون الكاتب والمؤرخ « حنا الأجرومي » أصدق ممثل للحركة العلمية الاسكندرية وآخر رجالها ، وإليه وإلى الفيلسوف السفسطاني « اسطفان الاسكندري » وإلى اسطفان الأثيني وهو طبيب مؤلف ومعلق على بعض تصانيف « جالين » الطبيب الاسكندري يرجع الفضل فيما نقل العرب من علوم الاسكندرانيين

خاصة بعضاً مما وضع جالينوس، أو ليقوموا بنقلها إلى لغة أخرى من غير كبير تفيد بتعاليم جالينوس نفسه  
ومن يذكر المؤرخون العرب أنهم اشتركوا في هذا العمل الطبي الكبير في أخريات أيام العلم الاسكندري : حنا قليوتس واسطفان الاسكندري وجسيوس وبلاديرس ومارينوس، الذين علقوا على مؤلفات أبقراط وجالين

ربما شهد العرب في الاسكندرية مدرسة فلسفية مسيحية أعقبت المدرسة « الأفلاطونية الحديثة » التي كان يتزعمها « الشيخ اليوناني » أفلوطين الاسكندري كما يصفه الشهرستاني ومن أشهر فلاسفة هذه المدرسة الفلسفية المسيحية الفيلسوف المسيحي السرياني « حنا الأفاي » نسبة إلى أفاية إحدى مدن سوريا الشمالية، والطبيب « مرجيوس الرسمي » المعروف باسم تيودوسيوليس الذي نقل عدداً لا بأس به من مقالات جالينوس إلى اللغة السريانية . وقد أتجت هذه المدرسة نفسها الطبيين المصنفين « بولس الأجانطي » و « أمرون » وقد أثر من هذا الأخير كتابه « الفتاوى الطبية » الذي نقل من السريانية إلى العربية وكان له أثره المحسوس في الطب الاسلامي في أوائل عهد العرب بالاشتغال بالعلوم الطبية

ومن الطريف أن تعرف كما يقول الأستاذ الدكتور ما كس مايرهوف أن الحجبة الذي يحدثنا عن مدرسة الاسكندرية في عصر من عصور اضطراب الاسكندرية وركود حركتها الطبية إنما هو « الفارابي » الفيلسوف العربي الذي عاش في القرن الباسر الميلادي، يقول في كتابه عند ذكر الفلسفة اليونانية وهو كتاب مفقود الآن إلا فقرات منه وعاما كتاب « عيون الأنباء » لابن أبي أسيمة تفيد أن امبراطور المسيحيين كان يتدخل في حرية البحث والدراسة ويقصر ما يدرس من علم النطق في كتب أرسطو على نقط لا تتعدى باب « الأشكال الوجودية » وكان يحرم دراسة ما عدا ذلك لتعارضه مع التعاليم الدينية المسيحية . ولا يهمننا ذلك إلا للدلالة على أن الاسكندرية لم تصبح قبيل الفتح الاسلامي وسطاً صالحاً للدراسة الحرة كما كانت من قبل، بل أصبحت الحركة العلمية فيها وفقاً على رجال الدين؛ ولم يكن من خير العلم أن يناوله رجال الدين؛ فيخضونه للدين وسلطانة  
ويذكر الفارابي أيضاً أن أستاذه المسيحي « يوحنا بن

حيلان » رفض أن يلمه فصولاً بذاتها من علم النطق لأرسطو كان معظوراً على فلاسفة الاسكندرية في ختام القرن التاسع الميلادي تعليمها إلا حين أبيض ذلك في وقت ما للمسلمين دون سواهم ولا يعزب عن البال أن الحركة العلمية وإن تكن قد فقدت في الاسكندرية مرتتها الخصب فقد وجدت في النسطورية المنتشرة في الشرق الأدنى وتطرقها إلى جوف الامبراطورية الساسانية ما أيقظ في الناس هناك رغبة صادقة في العلم في شكله الهليني السرياني ويعرف التاريخ أن الامبراطور ( زينو ) كان قد أمر بتحطيم مدرسة علمية بنسطورية عام ٤٨٩ م كانت مزدهرة في « أودسا » فأعقبتها على الأثر مدرسة قامت في « نصيبين » ببلاد الفرس . ونرى أنه قامت بجند يسابور باقليم خوزستان بفارس أيضاً مدرسة طبية ذات بال ظلت حتى القرن التاسع الميلادي ، وفيها تخرج كثير من الأطباء الذين خدموا بلاط الخليفة العباسي يفتاد وجلمهم من المسيحيين . ويهمننا ذلك للدلالة على أن النسطورية كانوا على أقل تقدير منذ القرن الخامس الميلادي يشتغلون بالعلم وبالطب خاصة في أودسا ونصيبين وجند يسابور من أعمال فارس، فلم يكن غريباً أن يكونوا حلقة الاتصال بين علم الاسكندرية والعرب فيكون منهم نقلة هذا العلم والحفظه عليه في عصر عصفت فيه أواء الاضطراب فهددت الثروة العلمية الهلينية بالزوال

ويحدثنا الأستاذ ما كس مايرهوف عن وثائق قيمة يتضمنها كتاب تاريخ الحكماء لابن أبي أسيمة وأصلها عن كتاب لأبي نصر محمد الفارابي مفقود تتضمن « أنه بعد خضوع الاسكندرية للإسلام انتقل مركز الثقافة منها إلى « انطاكية » وهناك استقر طويلاً حتى قضى معظم أساتذة العلم نجهم غير رجلين هجرا انطاكية بمحلمان ما اقتنيا من كتب، أحدهما من « حران » في أعلى أرض الجزيرة، والثاني من « مزو » في بلاد المجرم . وكان من تلاميذ « الروزي » هذا ابراهيم الروزي ويوحنا بن حيلان . أما تلاميذ « الحراني » فكان منهم القس « إسرائيل » و « الكوري » وهذا الاسم الأخير محريف للاسم السرياني كيريه أو قيرس

وقد أفادت بنداد من علم الكوري والقس إسرائيل وحتا بن حيلان ما أفادت وانتفع بلاط الباسيين بطلب هؤلاء، وأخذت عن هذا وذاك الثقافة الاسلامية ما أخذت عن طب القدماء وفلسفتهم .

الحضارة الاسلامية، غلب الايرانيين وشذفهم بتقليد الأوربيين في زمن الدولة الصفوية في القرن السادس عشر طبع التصور الفارسي وهو مظهر من مظاهر الحضارة الاسلامية بطابع أوربي أفقده ممزاته الأساسية التي هي سر جلاله وسحره ، وانتشار الطراز الأوربي في البناء قضي في مصر مثلاً على الطراز التركي المماني وهو آخر مدرسة من مدارس المارة الاسلامية

ولعل هذه العناية التي بدت من جانب وزارة المعارف لاهياء الثقافة الاسلامية لا تكون قاصرة على إحياء الجانب الفكري منها ، بل لعلها تتناول الجانب المادي أيضاً فيعود إلى الحياة طراز إسلامي في البناء تنسم به مصر الاسلامية وينبعث منها إلى البلاد الاسلامية المجاورة ، وتتمنى مصانع النسيج بإخراج أقمشة ذات أنماط فارسية بارعة الجمال كالتي عرفناها في دراساتها . وتتمتع بلادنا بمركزها الجغرافي بكمائة طالبا أدت بها أجل الخدمات كوسيط بين الشرق والغرب . وقد أغرم الغرب يوماً ما بفنون الشرق وحضارته وكان ناقلاً عنه بإعجاب شديد. وبس تاريخ الفنون كثيرأ من المعلومات عما كان بالبنديقية في القرن السادس عشر من مدارس فنية مهمتها تقليد التحف النحاسية الشرقية والخزف الشرق وما كان لصقلية من (طراز) أو مصانع النسيج التي كانت تخرج منتجاتها عما كية الأنماط المصرية والفارسية محاكاة تدعو إلى كثير من الاعتباط والاعجاب

ولنا في موضوع الثقافة الاسلامية جولات مستقبلية إن شاء الله نتناول في إيجاز حركة النقل ونشوء المدارس والجمعيات العلمية الاسلامية في مقالنا التالي

( دار الآثار العربية )

ابراهيم جمعة

خريج معهد الدراسات العليا للآثار  
الاسلامية بدرجة الشرف

تمت الطبع :

حياة الرافي

للأستاذ محمد سعيد العريان

الاشتراك فيه قبل الطبع ١٠ قروش تدفع إلى إدارة الرسالة

تمت الكتاب بعد الطبع ١٥ قرشاً

وكان انتقال مركز العلم من الاسكندرية مستقر العلم الهليني اليوناني إلى أنطاكية في خلافة عمر بن عبدالعزيز ومن أنطاكية إلى حران في خلافة المتوكل العباسي . وانتهى العلم في زمن المتضد إلى طين هما « الكوري » و « يوحنا بن حيلان » الذي مات بينداد في خلافة المتضد ، وعن هؤلاء انتقل إلى « ابراهيم الروزي » و « محمد بن كرتيب » وأبي بشرمقي بن يونس وهما تلميذان لابراهيم الروزي . وينسب إلي متى هذا أنه علق على كتب أرسطو في علم النطق . وبوفاة متى هذا بينداد في خلافة « الراضي » انتقلت الفلسفة العربية إلى أبي نصر محمد بن محمد الفارابي أحد تلاميذ حنا بن حيلان وهو أشهر من يرجع إليهم في المسائل الفلسفية من العرب والذي لم يكن يتأمنه غير مسيحي واحد هو « أبو زكريا يحيى بن عدى »

ولقد سبق أن عرفنا أن دراسة الفلسفة اليونانية على الشكل الذي انتهت إليه في الاسكندرية هاجرت إلى « حران » مغادرة أنطاكية ؛ وقدت حران بذلك وسطاً لدراسة الفلسفة اليونانية ، وعلم النجوم كما عرفه اليونانيون ولاسيا وقد سادت هذه الناحية من نواحي الدراسة في حران فئة « الصائبة » من عبدة النجوم فوجدوا فيها مرتماً ووجدت فيهم تلاميذ مخلصين . وهنا في حران نشأ بعض أعظم فلكيي العرب أمثال « ثابت بن قرة » والبتاني وغيرهما

وقد تجلت العقلية العربية الماضية بكل مزاياها ومميزاتها في حركة النقل الكبرى في عصر المأمون فترجت إلى العربية أشهر الكتب في كل ناحية من نواحي الثقافة . ويمكننا أن نصير هذه الثروة الفكرية الهائلة التي نجمت عن هذه الحركة أساس الثقافة الاسلامية كلها ، وهي ثقافة متشعبة الأصول واسعة الأطراف يحتاج الامام بفكرة إيجابية عنها إلى مقال خاص

ولا غنى لطلاب الثقافة الاسلامية عن الامام بالنواحي المختلفة التي شملها هذه الثقافة وبعضها فكري بحث والبعض مادي اتصال وثيق بالحضارة . وهذا الجانب المادي في اعتبارنا هو الطابع الجديد الذي طبعه العرب على وجه العالم منذ القرن السابع الميلادي حتى مصر التي فشت فيه المدنية الأوربية بما استصحبت من فوق جديد شغف العالم به فكان قاضياً على كثير من نواحي